أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسبه
ماء فقصده ليشرب منه فلما انتهى إليه لم يجده شيئا فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا
وأنه قد حصل شيئا فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد
له شيئا بالكلية قد قبل إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع كما قال الله تعالى وقدمنا
إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا. وقال ههنا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله
سريع الحساب. وهكذا روي عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة
وغير واحد وفي الصحيح أنه يقال يوم القيامة ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد
عزير ابن الله فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون فيقولون أي ربنا عطشنا
فاسقنا فيقال ألا تردون فتمثل لهم النار كأنها السراب يحطم بعضها بعضا فينطلقون
فيتهافتون فيها. وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب. فأما أصحاب الجهل
البسيط فهم الطاطم الاعام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم
كما قال الله تعالى أو كظلمات في بحر لجي قال قتادة وهو العميق يغشاه موج من فوقه
موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها أي لم يكد يقارب
رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الجاهل الكافر البسيط المقلد الذي لا يدري
أين يذهب ولا يعرف حال من يقوده بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب قال معهم
قيل فإلى أين يذهبون قال لا أدري. قال العوفي عن ابن عباس يغشاه
موج من فوقه موج من فوقه سحاب يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع
والبصر وهي كقوله ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم
وكقوله أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه
وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون. وقال أبي بن كعب
في قوله ظلمات بعضها فوق بعض فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه
ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات
إلى النار. وقال الربيع بن أنس والسدي نحو ذلك أيضا. وقوله ومن لم
يجعل الله له نورا فما له من نور أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل حاير باير كافر
كما قال تعالى من يضلل الله فلا هادي له. وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين
يهدي الله لنوره من يشاء فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورا وعن
أيماننا نورا وعن شمائلنا نورا وأن يعظم لنا نورا بحرمة محمد وآله

ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير
صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون
ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير

يخبر تعالى أنه يسبحه من في السماوات والأرض أي من الملائكة والأناسين
والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن
وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا. وقوله
والطير صافات أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه وهو
يعلم ما هي فاعلة ولهذا قال كل قد علم صلاته وتسبيحه أي كل قد أرشده إلى طريقته
ومسلكه في عبادة الله عز وجل ثم أخبر تعالى أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك
شيء ولهذا قال والله عليم بما يفعلون ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض
فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له
وإلى الله المصير أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي
الذين أحسنوا بالحسنى فهو الخالق المالك إلا له في الدنيا والآخرة وله الحمد في الأولى
والآخرة.

ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله
ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من
السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء
ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار
يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الإزجاء
ثم يؤلف بينه أي يجمعه بعد تفرقه ثم يجعله ركاما أي متراكما أي يركب بعضه بعضا
فترى الودق يخرج من خلاله أي المطر يخرج من خلله وكذلك قرأها ابن عباس والضحاك
قال عبيد بن عمير الليثي يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله الناشئة
فتنشئ السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب
رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقوله وينزل من السماء من جبال فيها من برد قال
بعض النحاة من الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة لبيان الجنس وهذا
إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى قوله من جبال فيها من برد معناه أن في السماء
جبال برد وبهذا قال وما واهم جهنم اي في الدار الجبال هنا كناية عن السحاب فان

عان

Copyright © King Saud University